بين الاشتراكية والقومية

● ان الهدف الاساسي لجميع المذاهب الاشتراكية هو القضاء تدريجياً ، او بطريق العنف ، على نظام الملكية الخاصة ، وتنظيمها ، ثم الغاء الانتاج واختيار موارده وطرق توزيعه .

● اما القومية فهي مجموعة مندمجة من الاشخاص ، يتفاعلون بنفسية واحدة ، ويندمجون في صفات وخصائص واحدة ؛ ويخضعون لعواطف وتيارات واحدة ، ويعملون من اجل هدف واحد .

● لا تناقض ـ الآن ـ بين القومية العربية والاشتراكية وليست الثانية هدفاً للاولى ، لان القومية العربية متحركة وليست جامدة متطورة وليست متأخرة ، وهي بالتالي واقعية في نهجها السياسي ، ومنطقية في كفاحها الاجتماعي . وطبيعة الاحداث اليوم ، والظروف الدولية ، تحتم عليها ان تتوسل بالاشتراكية من اجل رخاء العرب واستقلالهم .

موضوع الاشتراكية والقومية موضوع شائك لكثرة ما خاض بـــه الباحثون وتعددت فيه آراؤهم ، ولكننا سنحاول قدر المستطاع ترضيح نقطة هامـــة جداً تتمثل بهذا السؤال : هل هناك تناقض بين الاشتراكيةوالقومية؟..او بكلمة اخرى هل يمكن فصل الاشتراكية عن القومية او القومية عن الاشتراكية ؟

تعريف الاشتراكية :

يمكننا ان نفسر الاشتراكية بوجه عام على انها نظريات او حركات اجتماعية وبالتالي سياسية واقتصادية ، تهدف الى تنظيم مجتمع يقوم على صالح الغالبيـــة من الشعب ، وذلك عن طريق الملكية الجماعية والرقابـــة الجماعية لعناصر الانتـــاج والتوزيع . فهدف الاشتراكيـــة اذاً هو تحويل الملكيـــة الخاصة لعناصر الانتاج (كالمصانع والمنشآت الكبيرة والاراضي الزراعية والمناجم ونحوها) الى ملكية جماعية ؛وتنظيم الانتاج القومي وفقاً لخطة مركزية مرسومة تحقق الصالح العـــام لا صالح طبقات معينة ، وهي تهدف الى ازالة جميع المساوىء الاجتماعية والسياسية التي تمخض عنها النظام الرأسمالي الحر ، وترى ان هدفها الاول هو ازالة هـــذا النظام والقضاء على مـــا يترتب عليه ، من تمسك الافراد بقيم ماديـــة ضارة بالمجتمـــع وبالصالح العام .

انظمة اشتراكية اخرى :

هذه هي الاشتراكية العلمية غير ان هناك انظمة اخرى اتخذت من الاشتراكية شكلا لها ، على حين انها ليست في الواقع ، الا اتجاهاً اصلاحياً تقدمياً يمثل خطوة الى الامام نحو الهدف الاسمى .

على ان الكثيرين من الكتاب المتأثرين بالفلسفة الماركسية يرون انسبل الاصلاح الاجتماعي هذه لا تخرج عن كونها مخدرات وقتية تؤخر الوصول الى الهـــدف

وخصوصاً اذا كانت الطبقة الرأسمالية الحاكمة هي التي تحتضن هذه الاصلاحات وتقوم بها . وقد اثار هذا الاختلاف في وجهات النظر جدلاً حاداً على مر السنين بين مدارس الاشتراكية المختلفة . ففريق يؤيد الاصلاح التدريجي وآخر يؤيد اتباع وسيلة فعالة تقلب النظام الرأسمالي من اساسه وتمحو معالم الطبقة الحاكمة وطائفة الملاكين على اختلاف انواعهم .

اهداف الاشتراكية

اما وقد عرفنا ان للاشتراكية تفسيرات متعددة وطرقاً مختلفة في تحقيق اهدافها فانه ليمكننا ان نجعل تلك الاهداف في قائمة ترشدنا الى الاسس العامة التي تقوم عليها المذاهب الاشتراكية ؛ والاهداف التي تتضمنها القائمة المذكورة لا تعبر عن برنامج حزب اشتراكي معين؛ كما انها لا تشمل النواحي التفصيلية للمذاهب المتبعة . وانما هي قائمة عامة تتضمن رمزا او شعاراً عاماً لمفهوم المجتمع الاشتراكي وتتلخص هذه القائمة بما يلي :

اولا ــ ازالة طبقة الرأسماليين ونفوذهم . ٢) تخطية الجماعة فوق شخصية الافراد ــ ٣) تغيير نظام الملكية الخاصة بنظام ملكية جماعية ــ ٤) رفع مستوى المعيشة لعامة الشعب من جميع الوجوه ــ ٥) ازالة نظام الملكية الزراعية والقضاء على الاقطاع ــ ٦) كفالة الفرص المتكافئة للجميع دون تميز طبقي . ٧) هيمنة النظام المركزي على الانتاج وادارته طبقاً لخطة مرسومة تحقق الرفاهية للجميع على السواء .

ويتضح من هذه القائمة ان الهدف الاساسي العام لجميع المذاهب الاشتراكية هو القضاء اما تدريجياً واما بطريق العنف على نظام الملكية الخاصة ثم تنظيم الانتاج طبقاً لخطة مركزية مرسومة، باعتبار ان الدولة تكون هي المهيمنة على عناصر الانتاج وعلى توزيع الناتج القومي على افراد الشعب .

الاشتراكية والمذاهب العنصرية :

وقبل ان ننتقل الى تعريف القومية، يجب ان نشير الى ان بعض الباحثين يقعون في خطأ جسيم عندما يتوهمون النازية او الفاشية مذهباً من المذاهب الاشتراكية ، بمجرد ان النظم الفاشية والنازية قد غطيت بتسمية هي الاشتراكية القومية . فكلمة نازية ليست الا اختصاراً لعبارة « ناسيونال سوزيالسمس » الالمانية اي الاشتراكية القومية. ان الفرق شاسع بين الاشتراكية والفاشيـــة او النازية ؛ وهو فرق في العقيدة والاسلوب والفلسفة ونظام الدولة ، بل يمكن القول ان العداء مستحكم اصلا بين النظامين منذ نقطة البدء، فالفاشية تمثل دولة تعبئية تسخر فيها كل الجهود والعوامل والامكانيات لصالح الدولة . وتختصرها كلمة موسوليني: (كل شيء هو الدولة ولا شيء خارج الدولة ولا شيء ضد الدولة) وهي تعتمد على منطق واحد هو القوة الشخصيـــة التي هي مصدر كل قوة اخرى ؛ اي انها تعتمد على مبـــدأ الزعيم الديكتاتوري وتأليهه ، فليس الزعيم هو الذي يظهر في الملمات فينقذ البـــلاد من خطر داهم، ولكن الذي يفرض ارادته وسلطته على الامة بصورة اسوأ من تلك التي عرفتها الامم ايام الاباطرة والقيـــاصرة المستبدين . اما النازية فترتكز على اسطورة الجنس الآري المتميز والمؤهل لاستعباد الشعوب الاخرى؛ لذلك يهمنا ان نشير الى ان تسمية النازية مثلا بالاشتراكيـــة القومية ، ليست الا من قبيل الدجل السياسي والعقائدي وتضليل الناس .

تعريف القومية :

ان اكثر الصيغ الموضوعة لتعريف القومية تثبت ان التفكير النظري عاجز عن التفرد بمعالجة مركبها؛ وهكذا رأينا المفكر الاسباني (بيمارجال) يجهد منذ ١٨٧٦ لالحاق مبدأ القوميات بالمبدأ الاتحادي ؛ وجعله رديفاً له . وذلك بتحديد القومية

بواسطة خصائص ثابتة فهو يقول : اذا كان يمكن لشعب ان يرضى بما يأباه بالغريزة فيدين عنوة لشعب آخر ، ويصبح تابعاً له ؛ واذا كان يكفيه ليرضى بهذا المصير ان يحترم نوع حياته ويعطي مساواة في الفرص والحقوق مع المحتلين الغالبين . وكذلك اذا استطاع ان يعيش اسوة باميركا الشمالية في سلام وانسجام مع الغاصبين ، وذلك دون اي اندماج طبقي بالمحتل الذي تفصله عنه عوامل الجنس ، واللغة ، والدين ، والشرائع ، فمن البدهي عندئذ ان تكون قاعدة القوميات ومقياسها غير منحصرين لا في وحدة القوانين ، ولا في وحدة الدين ، ولا في وحدة اللغة ولا في وحدة الجنس. اما (اورياخ) فيمتنع عن تعريف القومية الا بصفتها حدثاً نفسياً اجتماعياً . في حين يرى (كيلتيي) انها ليست الا شعوراً يضاهي الشعور الديني ويمكن ان يمارسها الانسان طائعاً او مختاراً .

وقد عرفت دائرة المعارف البريطانية القومية فقالت :(القومية مفهوم يعتوره بعض الغموض ، ولكنه يستعمل في معناه الدقيق في الحقوق الامية ، للدلالة على صفة حالة ثابتة ؛ تعين التبعية في داخل الامة او الدولة بمعنى اكثر شمولا ؛ يستعمل في المناقشات السياسية والابحاث للدلالة على مجموعة مندمجة موحـــدة من الاشخاص الذين يحيون فيما بينهم من وحدة الجنس والارض واللغة وسواها) .

اما (رمزي موير) فلا يفرق بين الوطن والامة ، ولا يرى في القومية الا دلالة اجمالية على صفات الوطن وخصائصه ، ويعتبر القومية مجموعة من النـــاس الذين يشعرون بروابط طبيعية تجمعهم ؛ وميول طبيعية تبلغ من القوة ومن الحقيقة انها تتيح لهم الحياة المشتركة وتجعلها ممكنة بل مستحبة ، وتجعلهم لا يرضون ان تفرض عليهم العبودية للشعوب الاخرى .

واما (شارل ديمورغان) فيرى ان لفظة القوميـــة تظل غامضة المدلول ، فلا تدل الا على مناهج غير دقيقة ، والقواعد التي تقوم عليها مزعزعة غير ثابتة ، وذلك ناتج عن كثرة العوامل التي تحاول ان تثبت عليها مرتكزاتها .

وهناك من يصنف القومية في قوميتين : قومية انسانية وقومية لا انسانية والمثل على القومية اللا انسانية هو الاستعمار . فالاستعمار شعور قومي «لا انساني» وسبب

لجميع الثورات القائمة بين الامم .

وخلاصة القول ان اجماع العلماء في الفقه قائم على ان عناصر القومية هي: الجنس والارض واللغة والدين ... ولكننا لا نريد ان نسترسل في النظريات التي ساقها علماء الغرب حول هذا الموضوع بل نود ان ننتقل الى قول كلمة القومية العربية .

القومية العربية :

من الصعب جداً تحديد اركان القومية ؛ فاللغة وحدها لا تصلح ان تكون ركناً من اركانها ، وكذلك الدين لا يصلح وحده ان يكون ركناً من اركانها ، والوحدة الجغرافية والتاريخية والمصالح المشتركة لا تصلح كل منهـــا منفردة في ان تكون ركناً من اركان القومية . فمم تتكون القومية اذاً ؟

الحقيقة هي ان القومية لا تحدد بأي عامل من هذه العوامل ، وانما تحدد اولا واخراً بشعور مجموعة من الناس انهم ابناء قومية واحدة . والدكتور الرزاز يرى انه لم يجتمع لامة من اسس القومية مثل ما اجتمع للامة العربية ؛ واول هذه الاسس وحدة الارض .. هذه الارض التي تمتـــد من اقصى الشرق الى اقصى الغرب ، ومن الشمال الى الجنوب قطعة واحدة لها جغرافية واحدة ، تتمثل في كل قطر من اقطارها المجزأة ؛ وتتلخص في احتوائها جميعاً على صحراء وجبل وسهل .

اما اللغة فواحدة منذ اربعة عشر قرناً وهي ليست ركناً بسيطاً من اركان القومية العربية لانها اشركت العرب جميعاً في حضارة واحدة ، ونتـــاج عقلي واحد منذ ذلك التاريخ حتى اليوم .

اما الركن الثالث الذي تقوم عليه القومية العربية فهو التاريخ الواحد .. هذا التاريخ الذي حمل صورة واحدة ومر على ادوار واحـــدة وصبغ هـــذا الوطن بصبغة واحدة .

واما الركن الرابع فهو وحدة المصالح والمشاكل ، غير ان هذا كله في رأي الدكتور الرزاز لا يكفي وحده لاجل خلق قوميةواحدة ، وانما الذي يكفي حقا هو ان هذا كله قد انتج شعوراً عاماً لدى سكان الوطن العربي كله بأنهم ينتمون الى قومية واحدة . وهذا الشعور لا يرجع في الاصل الى ركن واحد من هـذه الاركان التي ذكرناها ، وانما يرجع اليها جميعاً ويعلو عليها جميعاً ... يعلو عليها لانه هو الاصل اما هي فاسباب وعوامل ؛ ولو اجتمعت كل هذه العوامل معاً ولم تنتج هذا الشعور بالقومية الواحدة ؛ لما نتجت قومية عربية واحدة . وهذا الشعور ينتج باللاوعي اكثر من الوعي ؛ لأن عوامل واحدة هي التي سيطرت على ماضينا وعلى حضارتنا وعلى تراثنا ، وهي التي تشكل حاضرنا ، ولاننا نجابه نفس المشاكل بنفس العقلية ونصادف نفس الامراض ، وتسيرنا نفس التيارات .

ولا شك ان هذه القرون الطويلة التي عاشهـا الوطن العربي ـ كمجموعة ـ تسيطر عليه نفس الحضارة ونفس العقلية ، ونفس المعتقدات ونفس الخرافات ، ونفس العادات ونفس الآلام ونفس الآمـال ، لم تمض دون ان تترك آثارهـا الواحدة كذلك ، في نفس الجيل القائم اليوم في البلاد العربية .

واما الركن الخامس فهو الدين ، ولا نريد ان نقلل من اهمية هذا الركن ، فعلى الرغم من ان الدين لا يمكن ان يحدد القوميات ؛ خصوصا ونحن نعلم ان الدول التي تدين بالمذهب البروتستانتي كثيرة ، وتمثل قوميات مختلفة اشد الاختلاف ، ونعلم ان الدول التي تدين بالمذهب الكاثوليكي كثيرة كذلك وتمثل قوميات مختلفة ، وان الاسلام ايضاً يضم قوميات مختلفه اشد الاختلاف ، بينها : الهنـدي والباكستاني والتركي والايراني والعربي والاندونيسي ، الا ان الذي لا شك فيه ، هو ان الاسلام قد صبغ حياتنا العقلية طوال ثلاثة عشر قرناً ، كمـا صبغ تقاليدنا وعاداتنـا ، واساطيرنا ومعتقداتنا ، وحياتنا اليومية المعيشية .

فالاسلام في البلاد العربية لم يكن مجرد دين فحسب ، بل كان تاريخاً وحضارة

وحياة عقلية ، اثّرت في حياة سكان هذا الوطن على اختلاف اديانهم ، ووحدتهم مسلمين ومسيحيين في اطار فكري ومعيشي واحد .

هل تناقض القومية الاشتراكية ؟

نستطيع دون تردد ، ان نجيب على هذا السؤال بكلمة لا ، فالقومية تحقيق لميل طبيعي في البشر يدفعهم للتعاون ، والاشتراكيـــة ميل من البشر لرفع مستواهم وتحسين ظروفهم الحياتية والمساواة فيما بينهم في الفرص .

ولا يطعن في القومية انها رافقت النظام الرأسمالي ، فأدت الى قيـــام الحروب لان هذه القومية قادرة على ان تعايش النظام الاشتراكي ، وتسير في ركابه ، فتمنع الحروب وتنمي روح التعاون .

واعظم ما يمكن ان يستشهد به من الواقع ، مثل الاتحاد السوفياتي نفسه ، الذي هو اقوى مظهر حتى اليوم لتعاليم كارل ماركس ، فهـــذا الاتحاد لم يقض على القوميات التي انضمت اليه ، ولم يلغ الحدود التي كانت تحـــدد بلاد التركستان او الارمن ، بل اعترف بها وقواها وانشأ في كل منها دويلة قائمة بذاتها ، ولكنه الغى طغيان القومية الروسية عليها ، القومية التي كانت سائدة في العصر القيصري ، أي انه أراد تحرير القوميات من الاستعباد ، ولكنه لم يرم الى الغاء القوميات نفسها ، بل عمل على تنشيطهـــا ، واحياء تراثها ورعاية فتوتها القومية . ولقـــد حدثنـــا صديق زار الاتحاد السوفياتي ، وتجول في جمهورياته المختلفة فأكد لنا انه لمس لمس اليد الطابع الخاص المميز لكل قومية في نطاق الاتحاد الواسع .

فاذربيجان مثلا او تركستان او اوزبكستان او ارمينيا ، تتمتع كل منهـــا باستقلالها الخاص ، ولها عاداتها وتقاليدها ولغتها القومية الخاصة بها ، ولا همّ للدولة الا تطوير هذه العادات وتلك التقاليد .

الاشتراكية العربية :

اما في البلاد العربية ، فقد دار جدل كبير وحمي الصراع كثيراً حول ما اذا كانت الاشتراكية يجب ان تواكب المد القومي وتندمج فيه ، او ان تنفصل عنه كمرحلة لاحقة نرقى اليها بعد ان نحقق وحدتنا ونتحرر . فهناك فئة تقول بان الاشتراكية يجب الا تكون في هذه المرحلة التاريخية التي نجتازها هماً من هموم نضالنا، لان هذا النضال يجب ان يتركز بادىء ذي بدء في تحقيق الوحدة القومية ، حتى اذا ما تحققت هذه الوحدة تسنى لنا طرد الاستعمار واستئصال نفوذه وتصفية قواعده. ومن ثم .. نتفرغ لمعالجة امراضنا الاجتماعية وتنظيم حياتنا الاقتصادية تنظيما تفرضه علينا ضرورات حياتنا الجديدة ومتطلبات ارضاعنا .

الا ان هذه الفئة حين تقول هذا القول تنسى كثيراً من الحقائق، فهي تنسى اولا ان الوحدة لا يمكن ان تتحقق الا اذا طردنا الاستعمار، فما دامت للاستعمار جذور في ارضنا ، وما دام للاستعمار سلطان على بلادنا ، فانه لا يمكن الا ان يكون عدو وحدتنا ، وقد تجلت هذه الحقيقة في السنوات الاخيرة ؛ وخصوصاً عندما توحدت مصر وسوريا في جمهورية واحدة . فلقد جن جنون الاستعمار ؛ ونشط عملاؤه نشاطاً عجيباً غير عادي، واخذت دوائره تعمل ما وسعتها الحيلة للحؤول دون خطوات توحيدية اخرى ؛ كما تعمل ما وسعها العمل لمحاربة الجمهورية الفتية الناشئة ؛ ومحاربة افشائها كمثل مشجع، وقدوة يجب ان تشخص اليها ابصار الاحرار في دنيا العرب.

كما تنسى هذه الفئة ثانيا ان التحرر هو طريق الوحدة ، وان القومية العربية ليست درجة في سلم الارتقاء والتطور ، وانه ليس بينها وبين الانسانية فاصل اساسي وتفاوت في الدرجة والقيمة ، بل انها هي تربة الانسانية ، والمجال الحي لاخصابها ، وان الانسانية ليست وضعا اجتماعيا او سياسيا، بل روح واتجاه ومثل تنبث في تكوين الشعوب والامم ، وتلون حضارتها وتوجه سلوكها واخلاقها، وهي مرافقة للقومية وليست لاحقة لها .

وهناك تيار قومي آخر هو الاقوى والاسلم ؛ يؤمن ان القضايا الاقتصادية والاجتماعية لا يمكن ان تفرغ من مضمون القومية .

فالقومية العربية بمضمونها الحديث هي مزيج متفاعل من هموم الانسان العربي كلها ، فالعربي بحاجة الى الحرية بحاجة الى الوحدة ، بحاجة الى العدالة الاجتماعية ، بحاجة الى تحرير اقتصاده من نفوذ الدخيل وسيطرة الغريب ، بحاجة الى تنمية موارده ، واستخلاص خيراته وكنوزه من ايدي غاصبيها وسالبيها ، وهو لا يستطيع ان يفاضل بين هذه الحاجات كلها ، فهي مترابطة متفاعلة ، ولا يستطيع ان يحجز فيما بينها فهي متواصلة متداخلة متشابكة ؛ ولا يستطيع ان يعتبرها مراحل يجب ان يجتازها مرحلة بعد مرحلة ؛ لانها في الواقع ليست الا ملامح متعددة لوجه واحد .

النضال القومي العربي والاشتراكية :

ان النضال في سبيل القومية العربية يعني في الوقت نفسه : نضالا في سبيل التحرر ، ونضالا في سبيل الوحدة ، ونضالا في سبيل الاشتراكية .

ان من يدعو الى القومية العربية ويبشر بها ، ويدعو الى محاربة العبودية والاستعمار والتجزئة والظلم الاجتماعي ، يبشر في الوقت نفسه ويدعو الى مقارعة الفقر والجهل والمرض ، والتفكك والانحراف والرجعية .

يبشر ويدعو الى الانسانية . . لان قوميتنا ومبررات وجودها تجعلنا لا نستطيع ان نتصور انها انما وجدت لتخاصم غيرها ؛ او لكي تثبت وجودها ازاء قوميات اخرى . او لكي تدعي التفوق او حق السيطرة على غيرها او لتدفع التهمة عن نفسها .

ان القومية العربية تلتقي مع النزعات الانسانية في انبل امانيها . . وانما يتوهمه

البعض نزعة غير انسانية تتمثل في كره العرب للاجنبي، ليست الا نتيجة حتمية للعهود السوداء الطويله التي عاشوها في ظل الاستعمار والكبت والعبودية .

لقد طغى الغرب وفرض على البلاد العربية التجزئة ؛ وحارب امانيها القومية محاربة لا هوادة فيها ولا رفق ، ولم يكتف بذلك بل اقام في قلب الارض العربية دويلة مصطنعة زائفة، وراح يغذيها ويمدها بالايدي والمال والسلاح، ويدعمها سياسياً وعسكرياً واقتصادياً، ويحرّضها عند كل مناسبة ويزين لها العدوان رامياً من وراء ذلك الى تمزيغ الكرامة العربية ، واذلال الاباء العربي وتمزيق الاخاء العربي والنيل من القومية العربية .

وكان الغرب من قبل ان يقيم اسرائيل قد اذاق العرب الوان العذاب .. فاحتل ارضهم واغتصب خيراتها وتنعم بثرواتها ، وحصر همه التمديني في اشاعة الفقر والجهل والخوف .. لذلك كان طبيعياً ان تنشأ عند العربي عقدة يمكن ان تسمى « عقدة الاجنبي » .

وكلما سنحت له الفرصة للشفاء من هذه العقدة، سارع الغرب الاستعماري الى ترسيخها وتأكيدها، فهو لا يفتأ ينبري للاماني العربية فيحاربها ويضطهدها ، ويعمل ما وسعه العمل لاحباطها وخنقها والحيلولة دون تجسدها وتحققها ؛ ولكن هذه العقدة ليست شيئاً اصيلا في الفطرة العربية ، بل الشيء الاصيل في هذه الفطرة هو الحس الانساني والانفتاح السمح على العالم ، والشعور بان هناك رسالة يجب ان يؤديها العربي لخير الانسان او ان يهم بأدائها مع الآخرين .

وكذلك فان الشيء الاصيل في هذه الفطرة هو الكره الشديد للذل والاستعباد وعدم الاستكانة للطغيان .

ميلاد القومية العربية :

لا يمكننا كباحثين ان نحدد للقومية العربية ـ كفكرة وشعور وحقيقة ـ يوماً نوضح فيه تاريخ تكونها وصيرورتها عاملا من اهم العوامل الفعالة في البلاد العربية؛ ولكننا نستطيع ان نلاحظ خلال الازمات التي مر بها الشعب العربي عبر تاريخه الطويل ان هذه القومية كانت اثراً من الآثار الخالدة التي واكبت تطور هذا الشعب منذ طفولته الجاهلية حتى شبابه الاسلامي .. الى ان تعاقبت عليه فيما بعد شتى المحاولات الرامية الى تفتيته وتضييع معالمه . والتي كان يقوم بها الشعوبيون تارة ، والاعداء الخارجيون تارة اخرى .

ومن منا يمكنه ان ينكر ان هذه القومية بدت اكثر ما تكون وضوحا وجلاء في كافة العصور العربية ؛ وانها كانت في العصر الجاهلي وفجر الاسلام ، نوعا من الصلات الوجدانية التي تربط بين سكان الجزيرة ، وتشد اطراف اليمن الى اطراف نجد ، وتربط بين الشواطيء التي تطل على المحيط الهندي ، وبين الشواطيء التي تطل على البحر الاحمر .

ومن خلال دراسة بسيطة لعادات العرب في هذه الجزيرة شمالها وجنوبها ، شرقها وغربها نجد ان « العروبة » كانت تسم الجميع بميسمها الخاص ، فما هو منكر في الشمال منكر في الجنوب ، وما هو متبع في الشرق متبع في الغرب ، والتقاليد واحدة ، والعبادات واحدة ، والتكوينات النفسية للشعب واحدة ، والطابع الحياتي واحد ، والمفاهيم الاجتماعية واحدة ، ولعله من العجيب ان تكون الحدود بين نجد وتهامة مثلا كافية لان تفرق بين النطق هنا وهناك ، وان تكون « أل التعريف » مثلا في احدى القبائل ، هي « الميم » في القبائل الاخرى ، من العجيب ان يتم حصول هذا الفرق في اللغة الواحدة ، وان يظهر جليا واضحا كلما تباعدت المسافة بين القبيلة والقبيلة ؛ في حين انه لا يؤثر هذا نفسه على عروبة اي عربي في اي مكان من الجزيرة العربية .

ولعل متسائلا يتسائل : علام كانت تثار الحروب بين القبيلة والقبيلة ؟ ولاي

شيء كانت تهدر الدماء بين قوم وقوم؟ ونحن قد عرّفنا القومية بانها شعور واحد لجماعة واحدة من الناس . فأين هو ذلك الشعور ؟

والجواب على ذلك هو ان الحياة العربية في اطوارها الاولى كانت قبلية بحتة ، ليس فيها اي لون تعاوني غير العنصرية ؛ وليس فيها اي رابط مدني ما خلا « العائلية » وليس فيها اي شكل حضاري ما عدا « العشائرية » وهذه الصفات المميزة للحياة العربية ، هي معان بدائية للقومية في المجتمعات الناشئة ، وهي نفسها الدلائل الناصعة على وجود القومية العربية كرابطة بين العرب لا على انتفائها ، وبالتالي فهي المراحل « الجبرية » الاضطرارية التي تمر بها القوميات في تكوينها الاول .

لقد اختلف ظهور هذه القومية الى الوجود وطبعه حياة المجتمع العربي بطابع ظاهر ، اختلافاً بيناً ، وسبب هذا الاختلاف هو ان العرب انطلقوا في اول عهدهم ينقلون الى الدنيا قوميتهم العربية وعقيدتهم الاسلامية ، وكان الواجب الغالب وهو « الاسلام » ابرز اثراً في انطلاقهم . بل انه كان هو الدافع الاول لهذا الانطلاق ، لذلك فقد انصبت كافة جهودهم على الدعوة الاسلامية . وبعبارة اوضح ، يمكننا ان نقول ان العقيدة الاسلامية كانت هي الرباط الاوثق . والصلة الاحكم ، والهدف الاسمى ، الذي يشترك العرب في التفرغ له وخدمته ورفع رايته في كل مكان ، ويمكننا ان نقول ايضاً ان الدعوة الاسلامية استغرقت بل استنفذت الطاقة العربية ، وكان من مفاخر هذه الطاقة ان حملت الاسلام الى جهات الدنيا الاربع .

اما القومية فكانت بجانبه شمعة مضيئة ذهبت بنورها الضئيل ، انوار الشمس الفياضة .

اما فيما بعد ذلك من العهود فقد استقر الاسلام في القلوب ، واخذ مكانه على الارض ، واخذت جذوره الكبرى تتمدد في الاعماق ، وتتناشر هنا وهناك ووثق

علاقاته مع العقائد الاخرى ، ونظم مشكلاتـــه معها ، واقام الحدود بينه وبين خصومه ، ووضع الاسس لاقامـــة مجتمع مثالي متعاون بناء .

ولقد اقيم ــ باسم الدين ــ هذا المجتمع فعـــلا ، وتقننت قوانينه ، وانتظمت شرائعه ، وتحـــددت حدوده ، واقيمت اركانـــه ، وبنيت جدرانه .

واطلت خلال فترة الراحة هـــذه ، العواطف والمشاعر الاخرى في صدور الناس: المسلمين وغير المسلمين،وبرزت الى الوجود دعوات دينية واحزاب سياسية ، كانت في حقيقتها متنفساً طبيعياً لمطالب الشعب العربي القومية ، وكانت بعض هذه الاحزاب مغالية في تطرفها ، وذلك لانها برزت تحت مؤثرات بحتـــة ، كالشعوبية ، والخوارج ، والقرامطة ، والعلوية وغيرها ، وبالرغم من ذلك فقد ظلت العروبة هي خط الدفاع الثاني بعد الاسلام في هذه الازمات .

مراحل تكوين القومية :

كل قومية من القوميات تتبلور ، وتأخـــذ طريقها في التكوين الفعلي ، وتبرز ملامحها الخاصة بعاملين اساسيين :

١ ــ العامل الايجابي : كتحمل اعباء رسالة ، او القيام بمهام حضارة ، او التمرس بعمل كوني، تكون من آثاره ان تتغير بعض الصفات الاساسية لفريق من الناس ، او تتغير خلائقهم ، وان تنمحي طبقات خاصة من البشر وتبرز الى الوجود طبقات اخرى .

و «الاسلام» يمثل هذا العامل في تكوين القومية العربية .

٢ ــ العامل السلبي ، كانطفاء جذوة السلطة ، أو الهزيمة المؤثرة في واحد من الميادين الهامة في حيـــاة الشعوب ، او انكسار شوكة الشعب ، وانحداره من مستويات القيادة الى حضيض العبوديـــة ، او مكوثه تحت ظلال احكام خارجة عن ارادته ، متنافية مع طبائعه ،مخالفة لقواعده واسسه .او خضوعه

لعوامل القوة والتحكم والسيطرة لشعب آخر او قوى اخرى .

وحملات الاستعمار التترية والمغولية ، والحملات الصليبية، وسيطرة الدول الغربية وتحكمها في البلاد العربية ... كل هذه التفاعلات المتفرقة تمثل العامل السلبي في تكوين القومية العربية .

ولعله من المفيد ان نلاحظ ان العاملين السلبي والايجابي هما متكاملان ؛ اي ان كلا منهما يكمل الآخر في ابراز معالم القوميات ، واعطائها صورة خاصة ، وشخصية خاصة ، فان العامل السلبي ، كالهزيمة مثلا لايمكن ان يكون ذا اثر فعال في تكوين قومية ما اذا لم يسبقه عامل ايجابي وهو عزة المكانة وانفة الخلق، وكبرياء النفس ، في اي شعب من الشعوب ، بل انه لابد ـ على الاصح ـ من توفر العامل السلبي ، فهو اشد اثراً واعظم خطراً في التكوين القومي .

ومن القضايا المسلّم بها ان العروبة تعرضت في تاريخها الطويل بعد سقوط بغداد ـ اذا اعتبرنا هذه المرحلة بداية التعرض للعوامل السلبية ـ لصنوف شتى من القهر والاذلال والعبودية ، والتحكم ، واننا لنحيل القارىء العربي الى التاريخ لكي يتبين مدى ما تحملته هذه العروبة من الضغط حتى تكونت لديها امكانية الانفجار .. بالقومية العربية .

القومية العربية والاشتراكية :

لكي نتمكن من تحديد علاقة القوميات وهي كما اسلفنا : مشاعر ، وامال واهداف واحدة ، بالنظريات كالاشتراكية أو غيرها ، لكي نتمكن من ذلك علينا ان ندرس اولا احتياجات هذه القوميات ، ومشاكلها التدريجية .

ووصفنا المشاكل « بالتدريجية » لأن الشعوب كالافراد تختلف مشاكلها باختلاف اعمارها الحضارية .

فالشعب البدائي ، تنحصر مشكلته في تأمين الغذاء الضروري ، والشعب الآخذ بسهم من المدينة يحاول ان يتغلب على الضائقـــات ويكوّن لنفسه ذاتية خاصة ، والشعب المتمدين ، يواجه مشكلات القضاء على الطبقات فيه ، وتطوير حياتـــه العامـــة ، وزيادة الدخل وصيانة الاستقلال ، وتأمين الرخـــاء والصحة والضمان الاجتماعي لكافة افراده .

فمن هذه الناحية يمكننا الآن ان نتساءل : ما هي مشكلات القومية العربيـــة؟ وهل تغيرت منذ ربع قرن ؟

للجواب على هذا السؤال ينبغي لنا ان نرجع بالذاكرة القهقرى .. الى زمن الانتداب الفرنسي في لبنان وسوريا والانتداب الانكليزي في فلسطـــين والعراق ومصر ، وزمن الاحتلال الفرنسي لشمال افريقيا بأكمله ... في هذا الزمن بالذات كانت القومية العربية موجودة بأجلى وابهى معانيها ، ولكنها كانت مغللة اليدين ، تواجهها مشاكل كبرى ، وتداهمها صعوبات هائلة :

الحدود المصطنعة بين البلاد ، اساليب الحكم المختلفة ــ كالملكية والجمهورية ــ والحكومات الانتدابيـــة المؤقتة ، جيوش الاحتلال المسلحة ــ العملاء في كافـــة الطبقات ، ابتداء بطبقة الحكام وانتهاء بطبقة صغار الموظفين ، الجهل ، الاقطاعية ، الاسر الحاكمة ، الاتكالية ، الفوضى ، واخيراً ... المطامع الجشعة للدول المحتلة .

كل هذه الصعوبات كانت تتراكم على عضد القومية العربية ، وكانت تحول دون ركبها المظفر ، ولكنها ظلت تقاوم هذه الصعوبات واحدة واحدة ، بفضل خلود هذه القوميـــة وقوة احتمالها العجيبة .

لقد استقلت سوريا واستقل لبنـــان ، واستقل العراق ، واستقلت مصر ، واحتفظت الدول المحتـــلة لنفسها في البلاد العربية « بموطىء قدم » اسمتـــه اسرائيل ، ومن ثم شعرت هذه البلاد شعورها الطبيعي بضرورة الالتئـــام حول الفكرة الواحدة والمصلحة الواحدة ، والهدف الواحد ، فتكونت الجامعة العربية ،

ولكن ، حين ظهر ان هذه الجامعة تضم النبلاء والصعاليك ، والسادة والعبيد ، ظهرت عليها بوادر الشلل ، وفقدت قيمتها العملية ، بدليل اختلاق دولة اسرائيل في عهدها الميمون ، ثم سرت عدوى الاستقلال الى الشمال الافريقي ، فنهضت ليبيا ، وتحررت مراكش ، واستقلت تونس . وتبلورت القومية العربية اكثر من ذي قبل ، واصبحت ضرورة ملحة .. ينادي بها الجميع .

ثم اصبحت المشكلة التي تواجه القومية العربية هي تنظيف الحكم ، فقد طالما مكث في دسوت الحكم صغار ، وطالما تحكم في الشعب العربي عبيد .

وانتصرت القومية على ادناس الحكم ، وارجاسه ، وهدأ الحال في مراكش وفي تونس ، وانقلب الوضع المهترىء في سوريا قضي على الملكية الفاسدة في مصر ، واستقام الوضع في السعودية ، وعمت البلاد الاغتيالات السياسية ، وكانت هذه الاغتيالات بداية الطريق لتنظيف دسوت الحكم ...

ثم تطورت مشكلة القومية الى مواجهة العدو المشترك ، ومنازلته ، والثبات بوجهه ، فتغير حكم وحاكمون ، وارتفعت ميزانيات الدفاع ، ومصاريف الحرب في البلاد العربية ارتفاعاً ملموساً ، وجرت مبارزات مضحكة ، وكانت الدول الغربية تحاول ان تثبت ـ في كل مرة ـ ان القومية العربية دائمة العجز ، دائمة الحاجة الى الغير .

ومن هنا برزت القومية لمواجهة مشكلة جديدة ... مشكلة توحيد الجهود والتخلص من السطرة وفك قيود الحصار الاقتصادي ، وهكذا عقدت اتفاقيات اقتصادية جبارة ، اذهلت الدول الغربية وقضت بسهولة على احتكار السلاح ، واختل ميزان القوى .

ثم انتقلت القومية لتحقيق مطلب جديد هو الوحدة . ومطلب آخر هو التسلح ، ومطلب ثالث هو الاستعداد . اما مطلبها الاخير الآن فهو تطوير المستوى الاجتماعي .

القومية العربية متحركة :

من هنا نرى ان القومية العربية متحركة وليست جامدة، وانها متطورة وليست متأخرة ، فهي في كل مرحلة من مراحل حياتها ذات هدف ورسالة ، بدأت رسالاتها واهدافها هكذا بالتدريج :

١ً ـ الاستقلال ، ٢ً ـ الحكم الصالح ، ٣ً ـ القوة ، ٤ً ـ التحرر ، ٥ً ـ الوحدة ، ٦ً ـ واخيراً : تطوير المستوى الاجتماعي .

ولقد حققت القومية العربية اهدافها واحداً واحداً بعزم شديد ، ويقين عظيم، وستحقق هدفها الاخير بالطريق العلمي الصحيح .. طريق الاشتراكية الصحيحة .

والدليل على ان القومية العربية متحركة ؛ هو ان قادتها ورواداها الاوائل لم يكونوا في البدء يلتزمون خطة واحدة، وكانت الاحداث التاريخية نفسها تجعلهم وجهاً لوجه أمام مطاليب محددة، وتحتم عليهم ان يتخذوا موقفاً معيناً ، ففي زمن الاحتلال الاجنبي لم يكن للقومية من مطلب الا الاستقلال واتمام الجلاء ، ولم يكن العرب في ذلك الحين يعملون لتحقيق الوحدة، ولا يسعون للتسلح ولا يفكرون بالتطور الاجتماعي ، اذ ان هذه المطالب مع وجود قوات الاحتلال على الارض العربية ليست في الواقع الا احلاماً بعيدة المنال، ومن حسنات القدر ان القومية العربية كانت واقعية في نهجها السياسي ، ومنطقية في كفاحها الاجتماعي ، فلم تكن تعالج الداء الا بالدواء ولم تكن تشهر كل اسلحتها لكل معركة. بل كانت تصعد السلم درجة درجة ، وها هي ذي اليوم تواجه اخطر مراحل وجودها ، وادق فترات حياتها ، فترة النهضة الاجتماعية والاقتصادية .

الاشتراكية والنهضة العربية :

اصبح من ترداد القول ان نبين ان الشعوب العربية كانت منذ اول عهدها فريسة « الطبقات » بالرغم من ان الاسلام ـ وهو الدين السائد في بلاد العرب ـ قد حارب الطبقية محاربة لا هوادة فيها ولا لين ، وبالرغم من ان الخلق العربي لا يسيغ التعالي ولا يطيق مظاهر العبودية والذل ، ولكن الواقع هو ان نظام الطبقات كان معروفاً عند الشعوب العربية ، وهذا النظام ، وان لم يتخذ شكل النظام الغربي ، ولم يكن فيه نبلاء ، وسوقة ، واكليروس ، وملوك وعبيد ، فانه تلون بلون ديني ، وتحزب احزاباً اسلامية بحتة ، ومن المعلوم ان المجتمع العربي في بداية عهده كان عبارة عن طبقة واحدة هي « طبقة المحاربين » وهم المجاهدون في سبيل الله ، ثم انفرط هذا العقد وتوزع الناس الى امراء وسادة وشعوبيين ، والى عرب وعجم واحرار وموالي والى صناع وتجار وفلاحين .

ولقد كان الصناع والتجار والفلاحون ، الطبقة الوحيدة الباقية منذ اكثر من ثلاثة عشر قرناً ، وهذه الطبقة هي التي تحملت المغارم ، وهي التي بذلت الاضاحي ، وهي التي حافظت على الروابط الخالدة بين ابناء الشعب العربي ، ولا جدال في ان المذاهب الانسانية ، التي تهدف الى الرقي الاجتماعي والاقتصادي ، وضعت كلها هذه الطبقة موضع التجربة ، ولا عجب فانها هي الطبقة الغالبة في سواد الشعب وفيها تكمن اسس النهضات ، وقواعد الانطلاقات الثورية في المجالات السياسية والاقتصادية والحربية والصناعية .

الاشتراكية طريق القومية :

لقد انتهت القومية الآن من معركة الاعداد النفسي ، وحصلت ـ في اغلب بلادها ـ على الاستقلال ، ووقفت على قدميها ، تواجه صفعات اعدائها بصفعات

اشد قسوة واكثر تنكيلا ، وطبيعة الاحداث اليوم ، ومفاهيم السياسة الحديثة تفرض على القومية العربية ان تسهم في بناء الحضارة ،وان تمد بساعدها الجبار لتقيم للانسانية طودها الشامخ ، وهي لن تتمكن من التمرس بهذا العمل الضخم ، ولن تستطيع القيام باعبـاء هذه الرسالة الا اذا تخلصت من الامراض الاربعـة : ١ ــ الانقسام ، ٢ ــ السيطرة الخارجية الاقتصادية ، ٣ ــ الاقطاعية الداخليـة ٤ ــ التأخر الصناعي .

ولسنا بحاجة الى بحث وتنقيب كبيرين ، لـكي نصل الى النتيجة الحتمية ، وهي ان الاشتراكية هي السبيل الوحيد ، للقضاء على هذه الآفات الاربع ، والا شيء غير الاشتراكية يحقق الوحدة العربية ، ويقضي على السيطرة الخارجية الاقتصادية ويذيب الاقطاعية الداخلية في بوتقة من المحبة والاخوة والتسامح ، ويرفع في سهول البلاد وفي جبالها ، وفي صحاريها ووديانها ،مداخن المصانع الكبرى ، ويدير عجلات المعامل الضخمة التي توطد دعائم الاستقلال ، وتمد مرافق البلاد بدماء جديدة ، وتدعم جيش البلاد ، وترفع معنوية الشعب ، وتجعله حقاً وصدقاً نداً قادراً على الوقوف بوجـه الذين كـانوا الى زمن قريب يمصون دماءه ويسرقون ثرواته ويتحكمون في ارزاقه .

ان القومية العربية تنشد الرخاء الاقتصادي ،ولا شيء يحقق ذلك الا : «التصنيع» ولا وسيلة لتعميم التصنيع الا وسيلة الاشتراكية ، وتسخير ثروات الشعب من اجل رخاء الشعب وعزته .

وانه لمما يملأ القلب فخراً واعتزازاً ان تنهض في الجمهورية العربية المتحدة اسس المئات من المصانع ، وان ترسى القواعد لاضخم المؤسسات الصناعية في الشرق ، التي ستكون ولا شك المنارات الحديثة ، التي تستهدي بها العروبة طريقها ، وترفع القومية هامتها ، وترسخ اقدامها ؛ وتعود الى سابق عهدها ، رسالة انسانية نبيلة ، تساهم في اسعاد البشر ، وفي توفير الرخاء لبني الانسان .

ولن يمر زمن طويل حتى تحقق الاشتراكية العربية اهدافها ، في كل مكان ،

فتلغى الحواجز المصطنعة ، وتمحى الفوارق المفتعلة ، وتوزع الثروة توزيعاً عادلا ويقف العربي في تطوان، ليشهد في ربى النيل قوافل الشباب العربي الناهض؛ يبني امة ويصنع مجداً ، ويصعد الى الجبل اللبناني ، ليبارك الضواحي الصناعية على ضفاف دجلة والفرات .والشعب العربي واثق كل الثقة ، ان اعداء القومية العربية هم وحدهم الخاسرون ، وان القومية العربية هي المنتصرة في النتيجة، لانها مندمجة بمنطق التاريخ وتطوراته ، ولانها تحمل في ذاتها جميع امكانات الانتصار .

obeikandl.com